أخلاقيات القوة والصراع والسلام

DR. Maher Samuel

COMMENCEMENT SPEECH ETSC 2023-2024D

مجلس الكلية الموقر، الفاضل عميد الكلية وأساتذتها الأجلاء، الأحباء الخريجين وعائلاتهم،

شرف وامتيازلي أن أكون متحدثا بينكم اليوم،

شرف أن يوكل مجلس الكلية وعميدها إليَّ مهمة تقديم خطاب هذا الحفل، فشكرا جزيلا لهم.

وامتيازلي أن أتحدث اليوم إلى الخريجين، وهم يبدؤون مرحلة جديدة في حياتهم، أملاً أن يكون حديثي نافعا لهم في هذه المرحلة.

أبدأ بالتهنئة ثم أنتقل لموضوع الخطاب،

تهنئة لإدارة الكلية ولمجلسها على نجاحهم في الحفاظ على هذا الصرح مثمرا على الرغم من كل التحديات.

وتهنئة للخريجين، تهنئة تستحقونها بعدما بذلتم من العمل والجهد والصبر عدة سنوات، اليوم لكم الحق أن تبتهجوا بالنجاح، وبنهاية رحلة كفاح، تتوجونها اليوم بحصولكم على لقب أرباب علم. لكن لا تنسوا أن هذا اللقب نفسه يلقي عليكم اليوم عبئا جديدا أثقل من عبء الدراسة، عبء مسئولية خدمة الناس بتعليم حقيقي ينفعهم، فأقول لجميع الخريجيين ما قاله الرسول بولس لقسوس كنيسة أفسس، "احترزوا إذا لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه. أع٢٠:٢٨ "

أما عن موضوع الخطاب فقد طلب مني مجلس الكلية أن يكون حديثي إليكم تحت هذا العنوان،

"أخلاقيات القوة والصراع والسلام"

أعتقد أن هذا العنوان يُفصح عن مضمون الرسالة التي يريد مجلس الكلية إبلاغها في هذا الحفل، ألا وهي،

"إننا نعيش في عالم منزوع السلام، يسوده الصراع، وأحد أهم الأسباب هو ممارسة القوة بدون أخلاق".

اليوم، وبينما نحن مجتمعون في هذه القاعة، لم تزل أصوات الرصاص تدوي على الجانب الأخر من حدود بلادنا من كل الجهات، الشرقية والغربية والجنوبية. في غزة ورفح، في ليبيا، وفي السودان، صراع مميت وضياع تام للسلام. وفي الو اقع، الأمر لا يقتصر على اليوم، ولا على منطقتنا، فصفحات كتاب التاريخ البشري المعروف، القريب أو البعيد، تشهد أن التاريخ البشري هو تاريخ ممارسة القوة بدون أخلاق، حيث القوي يفترس الضعيف، وحيث يقهر الحاكم المحكومين، ولذا جاءت تلك الصفحات ملطخة بالدم، ويعلو منها صراخ الظلم.

ما أود أن أقدمه في هذا الخطاب هو توضيح الموقف المسيحي إزاء هذا الو اقع المرير.

رأيت أن توضيح الموقف المسيحي إزاء هذا الواقع يلزمني بالاشتباك مع ثلاثة أسئلة مركبة مبنية أحدها على الأخر،

أولا: ماهي أخلاقيات القوة التي تحقق السلام؟

ثانيا: لماذا نحتاج لهذه الأخلاقيات بالذات؟

ثالثا: كيف نطورهذه الأخلاقيات التي تضمن تحقيق السلام؟

أولا: ما هي أخلاقيات القوة اللازمة لتحقيق السلام؟

لكي نعرف ما هي أخلاقيات القوة نحتاج أولا أن نُعَرِّف ما هي القوة؟

القوة في تعريفها الفيزيائي، هي إمكانية التأثير. وفي تعريفها الفلسفي طبقا لموسوعة روتليدج الفلسفية هي القدرة على التغييرسواء في إحداثه أوفي منعه[1]. وفي تعريفها اللاهوتي طبقا لقاموس تيندال هي" إمكانية التأثيربسبب القدرة، المهارة، الإمكانيات، أوالتكليف/ السلطة. وهذا التعريف الأخيريربط بين القوة والسلطة، فالقوة قد تكون قوة الجسد، المال، العلم، الذكاء، المواهب، أوقوة السلطة. ولذا في اللغة الإنجليزية كلمة واحدة Powerتدل على الاثنين. ومن المنظورالكتابي، يقول عنها اللاهوتي والفيلسوف الأمريكي المعاصرريتشارد موRichard Mouw "إننا لا نقرأ عن القوة وكأنها شيء محايد[2]"، أي أنها دائما إما قوة للخيرأوقوة للشر. إنها كالعلم، تعتمد في تجليها على الكيان الأخلاقي الذي يستعملها.

توضيح لابد منه

هنا ينبغي أن أتوقف لكي أوضح شيئا هاما ألا وهو، لا ينبغي أن يكون لدينا انطباعا سلبيا عن مفهوم القوة/ السلطة ولا عن ممارستها، فالقوة نعمة، وممارستها لا غنى عنها، بشرط أن تمارس في وجود الأخلاق الصحيحة اللازمة لممارستها. هناك اقتباس شهيرلكلمات لورد أكتون يتردد باستمراريخلق انطباعا سلبيا عن القوة يقول: "القوة تفسد والقوة المطلقة تُفسد فسادا مطلقا". يعلق ريتشارد Mouw على هذا الاقتباس بالقول إنه اقتباس غيردقيق ومنزوع من سياقه، فأولا، لورد أكتون في نص حديثه يقول إنها تميل للإفساد وليس تفسد، tends to corrupt، لكن الأهم هو ما أضافه بعدها ليوضح قصده إذ قال، إن البشربشكل عام، حتى العظماء منهم، هم في جوهرهم خطأة/سيئون يميلون

[1] https://www.rep.routledge.com/articles/thematic/power/
[2] https://christianscholars.com/the-christian-use-of-political-power/

للفساد حتى في تأثيرهم العادي، وبالتالي يزداد الأمر سوءا عندما تضيف لهذا الميل السلطة[3]. إذا ما يقصده اللورد أكتون هو أن العيب ليس في القوة، بل في الإنسان الذي يستعملها أنه طبيعيا يميل للفساد، وبالطبع فإن قدرته على الإفساد تزداد بزيادة سلطته. يؤكد على هذا لاهوتي أمريكي أخر معاصر هو ريتشارد فوستر في كتابه." المال، الجنس، السلطة، تحديات الحياة المنضبطة" فيقول: "السلطة يمكن أن تدمر أو أن تخلق، السلطة المدمرة هي تلك التي تدمر العلاقات، حيث تدمر الثقة، وتدمر الحوار، وتدمر استقامة الناس. بينما السلطة الخلاقة هي تلك التي تمنح الحياة والفرح والسلام، القوة الخلاقة حرية وليست عبودية، حياة وليس موت، تطور وليس قهر"[4].

إذا القوة أو السلطة نعمة لا غنى عنها، لكن إذا مورست بالانفصال عن الأخلاقيات الصحيحة لممارستها، صارت لعنة لا نجاة لأحد من كوارثها.

هنا يمكنني أن أنتقل للسؤال الأساسي،

ما هي أخلاقيات القوة اللازمة لتحقيق السلام؟

كتعريف إجرائي مختصر أقول، "هي ضوابط/ كوابح تنبع من الداخل، من كيان إنساني مجدد، صار يتبنى مفهومًا صحيحا عن القوة، تجعله يوجه قوته لخير نفسه ولخير الأخر".

سأعود لهذا التعريف بتفصيل أكثر في إجابتي عن السؤال الثالث لكن بعدما أنتهي بسرعة من إجابة السؤال الثاني ألا وهو:

ثانيا: لماذا نحتاج لهذه النوعية من الأخلاق؟

الإجابة باختصار لأن البدائل فاشلة. فالعالم يقر بحتمية وجود ضوابط لممارسة القوة لإحلال السلام في العالم، لكن لكونه يعجز عن تجديد كيان الإنسان، ولغياب المفاهيم الصحيحة للقوة عنه، كل ما يفعله هو تطوير ضوابط خارجية تحاول كبح جماح استعمال القوة استعمالا خاطئا ينزع السلام من الأرض. وبسبب حدود الوقت سأكتفي بثلاثة أمثلة لهذه الضوابط الخارجية الفاشلة في تحقيق السلام، وأكتفي بمرجع واحد لتأييد محاجتي. أما الضوابط فهي

أولا التقدم العلمي،

---

[3] John Acton, *Acton-Creighton Correspondence*, Indianapolis, IN: Unknown, 1887, Letter 1, para. 22, https://oll.libertyfund.org/title/acton-acton-creighton-correspondence.

[4] Richard foster, Money, sex & power: the challenge of the disciplined life, Hodder Stoughton, 196

ثانيا، زيادة المعرفة،

ثالثا، الهيئات الدولية أو القانون الدولي.

وأما المرجع فهو ريتشارد نيكسون الرئيس السابق للولايات المتحدة في كتابه الشهير نصر بلا حرب الصادر عام ١٩٨٨.

فعن الضابط الأول أي التحضر والتقدم يقول نيكسون:

"وسوف نتذكر في عام 1999 أن القرن العشرين هو القرن الأكثر تقدمًا، والأكثر دموية، في تاريخ الجنس البشري. فلقد قتل في هذا القرن 120مليون شخص في 130 حربا .وهذا العدد يفوق عدد من قتلوا في كل الحروب فيما قبل سنة 1900. غير أن ما تم تحقيقه من تقدم تكنولوجي في المئة عام السابقة لم يكن له مثيل من قبل."[٥]

وعن المعرفة يقتبس نيكسون من هربرت جورج ويلز المفكر والأديب الإنجليزي الشهير ويعلق عليه فيقول:

في نهاية الحرب العالمية الثانية كتب ويلز: «إن التاريخ البشرى أصبح بصورة متزايدة سباقا بين المعرفة والكوارث» وتوقع ويلز أن المعرفة وحدها هي التي تخلق عالما أكثر سلما. يعلق نيكسون فيقول: هنا أخطأ ويلز، وخلط بين المعرفة والحكمة، فقبل أن يصبحوا معتدين في الحرب العالمية الثانية، كان الألمان هم الأكثر تعلما، وكان اليابانيون هم الأكثر معرفة على وجه الأرض.[٦]

وعن الهيئات الدولية يقول نيكسون،

ليس هناك أشد تدميرا من الفكرة القائمة على التمني القائلة بأن المنظمات الدولية يمكن أن تحقق السلام الكامل. لقد كانت هناك تجربتان عظيمتان في النظام العالمي إبان هذا القرن، هما عصبة الأمم (١٩١٩)، وهيئة الأمم المتحدة (١٩٤٥). ومنيت كل مهما بفشل ذريع. لقد أعلن وودرو ويلسون في خطاب طالب فيه بعضوية الولايات المتحدة في عصبة الامم: «إنها تشكل ضمانة حاسمة للسلام. إنها ضمانة حاسمة بالتعهد بالوقوف ضد العدوان». وبعد أقل من عقدين من إنشاء العصبة، انغمس العالم في الحرب الأشد تدميرا في التاريخ.

ولم يكن فر انكلين روزفلت أقل تفاؤلا بشأن الأمم المتحدة. فقد قال: «ينبغي لنا هذه المرة ألا نفقد الأمل في إقامة نظام دولي، يكون قادرا على حفظ السلام وتحقيق عدل أكثر اكتمالا بين الأمم على مر السنين». لقد نشبت مئة وعشرون حربا

[٥] ريتشارد نيكسون، نصر بلا حرب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الثالثة١٩٩١، ص٢٣
[٦] المرجع السابق ص٢٦

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وتأسيس الأمم المتحدة. وقتل ثمانية عشر مليون شخص في هذه الحروب، وهذا الرقم يزيد على العدد الكلى للذين قتلوا في الحرب العالمية الأولى.[٧]

الرسالة التي أخلص بها من كلام نيكسون هو أنه حري بساسة ومفكري عصرنا الحاضر، وحري بقادة الكنيسة في كل العالم، وحري بنا نحن المجتمعون اليوم لنحتفل، أن نتعلم من دموية القرن العشرين، أن البشر يحتاجون إلى نوع مختلف من الضوابط الأخلاقية لممارسة القوة، تلك الضوابط التي وصفتها في تعريفي الإجرائي لما هي أخلاقيات القوة اللازمة لإحلال السلام في العالم.

إنها ضوابط تنبع من الداخل، وليست تفرض فرضا من الخارج، تنبع تلقائيا من كيان إنساني تجدد ويستمر يتجدد، من خلال تبنيه لمفاهيم صحيحة عن القوة.

هذه العبارة الأخيرة تؤسس لإجابتي عن السؤال الثالث، كيف نطور أخلاقيات القوة التي تحقيق السلام في العالم؟ إجابتي هي بتغير مفاهيمنا عن القوة، إذ نرفض ونحتقر المفاهيم الخاطئة ونتبنى ونحتضن المفاهيم الصحيحة، وهنا يصير السؤال،

ما هي المفاهيم الصحيحة للقوة؟

للإجابة عن هذا السؤال أستعرض معكم ثلاثة مفاهيم خاطئة للقوة، شكلت العقل البشري في كل عصوره، لكنها تجلت بشكل خاص في ثلاث حقب مختلفة من التاريخ البشري، و أقدم الموقف المسيحي المقابل والمضاد لكل منها.

١. عصر ما قبل الحداثة، العصور القديمة والعصور الوسطى.

٢. عصر الحداثة، النهضة والإصلاح والتنوير.

٣. عصر ما بعد الحداثة.

أولا: عصر ما قبل الحداثة

"القوة هي السطوة "

في العصور القديمة والوسطى كان مفهوم القوة يكمن في مجد السطوة، والسطوة في اللغة العربية هي القهر والبطش. وربما تاريخ الإمبراطورية الرومانية يجسد هذا المفهوم بشكل قوي. لقد وصل يوليوس قيصر إلى المسرح العالمي

---

[٧] المرجع السابق ص ٣٠

كإمبراطور ودكتاتور في عام ٤٩ قبل الميلاد. بالنسبة للعالم القديم، بدا قيصر هو المثال الأفضل للقوة، وكالإجابة على احتياج البشرية إلى قائد جديد لتخليص العالم من أزماته. يصف الشاعر الروماني الشهير فيرجيل انتظار العالم في تلك الفترة فيقول:

الآن انتظار القرون الطويلة يولد جديدًا،

الان يولد جنس جديد من أعلى السماوات،

به سيرحل الجيل الأول، جيل الحديد، وجيل من ذهب سيقوم في كل الأرض[8]

هذا الوصف البديع للمخلص المنتظر، يبدو للمسيحي اليوم كما لو كان فيرجيل يصف مجيء يسوع وليس قيصر. لكني أتخيل أن فيرجيل سيضحك ملء شدقيه ساخرًا إذا سمع هذا التصور، إذ كيف يمكن لعبد فقير من الجليل، ولد في مذود حقير، ومات مصلوبا، أن يكون هو الشخص الذي يلبي احتياج البشرية الأعمق لقائد قوي، قادر على أن يخلص العالم من أزمته ويخرجه إلى عصر جديد من الذهب؟! لكن هذا هو بالضبط ما أمن به المسيحيون في القرن الأول، وما كانوا به يُبشّرون، أن وليد المذود، الحمل المصلوب، الذي جاء ليخدم لا ليتسلط، الذي لم يجلس على عرش، بل جال يصنع الخير، الذي لم يتشح بوشاح القضاء، بل بمنشفة الخادم، الذي لم يتسلط على الأنام، بل انحنى ليغسل الأقدام، الذي لم يتعال على البشر، بل صار واحدا منهم، ومات بدلا عنهم، هو التجلي الأعظم للقوة الإلهية، وهو الاحتياج الأكبر للبشر الضعفاء من أجل خلاصهم. فيسوع هو المخلص الحقيقي المنتظر للإنسان وليس قيصر. ولقد أكد يسوع على هذا المفهوم وهو يحاكم من رئيس الكهنة عندما سأله أأنت المسيح ابن المبارك؟ فقال له يسوع: "أنا هو وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة و آتيا في سحاب السماء" (مرقس ١٤:٦٢). وقد صادقت السماء على هذا المفهوم المختلف للقوة إذ أقامت يسوع من بين الأموات وأعطته كل القوة والسلطان. ولذا عندما ظهر يسوع لتلاميذه بعد قيامته ليعطيهم تكليفه الأخير بأن يذهبوا ليتلمذوا له جميع الأمم، أكد لهم صحة وشرعية هذا المفهوم إذ قال: "دُفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض (متى٢٨: ١٨). وكان بهذا التصريح يريد أن يذكرهم بأن تبنيهم لهذا المفهوم هو الأساس الوحيد لنجاح إرساليتهم. فانطلقوا بفرح غير خائفين من قيصر ليعلنوا في كل الأرض أن يسوع هو الرب، وهو المخلص الذي تحتاجه كل الأرض، و أنه هو الجالس الآن على أعلى عرش في السماء، "فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة، وكل اسم يُسمى، ليس

[8] Virgil. Eclogues 4.6–9.

في هذا الدهر فقط، بل في المستقبل أيضًا" (أفسس ١:٢١). وبينما مات قيصر و اندثر هو وامبراطوريته، تمت نبوة دانيال عن يسوع ابن الإنسان، " الذي قربوه إلى القديم الأيام فأعطي سلطانا ومجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض، (دانيال ٧: ١٤).

"الخدمة وليس السطوة"، هي مفهوم القوة الحقيقية الذي أعلنه لنا وعلمه لنا يسوع المسيح بحياته وبموته، وهذا هو المفهوم الوحيد الذي ينبغي ألا يبرح من أمام عيوننا كقادة في خدمة الكنيسة والعالم. المفهوم الذي أدعونا اليوم جميعا للتأمل فيه مليا، إن الطريق السليم للقوة والتأثير هو المذود والصليب. فمذود المسيح أقوى من قصر قيصر، وصليب المسيح أقوى من عرش قيصر. أقول هذا ليس كشعار، بل كحجة أراها مقنعة تسحق سخرية فرجيل إذا سخر، بل وتسحق كل فرجيل إذا ظهر، لأنه إذا كانت القوة/ السلطة هي القدرة على التأثير، فمن في نظركم له التأثير الحقيقي اليوم في التاريخ البشري، قيصر أم المسيح؟ لقد مات قيصر و اندثر أثره، بينما يبقى يسوع حيا يغير حياة ملايين البشر. في هذا الصدد أنصح بقراءة لا كتاب لاهوتي مسيحي، بل كتاب ويل ديورانت قصة الحضارة المجلد الثالث. والذي جعل عنو انه "قيصر والمسيح". وفيه يرينا سقوط الإمبراطورية الرومانية وارتفاع الصليب[٩].

مفهوم جديد عن الله

هذا المفهوم الصحيح للقوة الذي قدمه يسوع، ليس فقط يغير مفهومنا عن القوة لكنه يغير مفهومنا عن الله، وعن الإنسان. غير مفهومنا عن الله باعتباره المطلق القوة أو القوة المطلقة. هذا لأنه طبقا لإيماننا المسيحي إن يسوع في تجسده وصلبه يعلن للبشر أن الله العالي السامي، الواحد الفريد، المختلف كلية، الذي لا شبيه له، ولا شريك له the transcendentيتنازل ويشارك البشرية في ضعفها ويتوحد معها في ألمها. الكائن الأقوى في الوجود الذي لا نظير لقوته، لم يرقوته على أنها فرصة ليستحوذ ويتسلط، بل ليسكب نفسه في صورة خادم، صائرا في شبه الناس، وإذ وجد بينهم كخادم، تواضع أيضا وأطاع حتى الموت، موت الصليب، ليقهر لهم عدوهم، وليحررهم من أسر الموت والفساد وليمنحهم الحياة والخلود. (فيلبي ٢: ٧-٨). إن مفهوم القوة عنده هو مفهوم المحبة التي تترجم عمليا في التنازل وليس في التعالي، في الاقتراب وليس في الانعزال، في الاحتواء وليس في الإقصاء، في الانسكاب وليس في الاستحواذ، في الخدمة وليس في السطوة.

مفهوم جديد عن الإنسان

---

[٩] قصة الحضارة، ول ديورانت، مكتبة الأسرة، المجلدين الخامس والسادس، الأجزاء من ٩-١٢

هذا المفهوم الصحيح للقوة لم يغير مفهومنا عن القوة وعن الله فقط، لكنه يغير أيضا مفهومنا عن الإنسان. إن يسوع بمذوده وصليبه يكشف عن رؤية الله لقدسية الإنسان وجدارته بأن يُخدم حتى من خالقه. فبسبب التجسد والصليب نستنتج منطقيا أن الإنسانية مقدسة لدى الله للدرجة التي معها لا يراه الله عارًا أن يتحد مع العبد ليخدمه وليخلصه. لذا جاء يسوع كقاسم حقيقي للتاريخ ليغير مفهومنا عن الإنسانية، وبهذا وضع الأساس لكل نشاط نبيل ينبع من رؤية سامية لقيمة الإنسان. فجاء نشاط وليام ويلبرفورس، ومارتن لوثر كينغ جونيور، والأم تريزا، ومجدي يعقوب، وغيرهم، اللذين فهموا أن القوة الحقيقية هي إكرام كل إنسان بغض النظر عن العرق أو الجنس أو الوضع الاجتماعي. بسبب مذود يسوع وصليبه فهمنا أنه لا فرق بين اليهودي واليوناني، بين العبد والحر، بين الذكر والأنثى. (غلاطية ٣:٢٨). لقد جعل قيصر العالم أسوأ بينما جعل يسوع العالم أفضل. هذا هو السبب في أنني أؤمن بأن يسوع أقوى من قيصر، وأن القوة الحقيقية تكمن في مذود يسوع وصليبه، لا في قصر قيصر وعرشه.

كيف تفاعلت الكنيسة مع هذا المفهوم الحقيقي للقوة؟

لقد تبنت الكنيسة في قرونها الثلاثة الأولى هذا المفهوم الذي علمه لها رأسها المسيح، ولذا كانت الكنيسة قوية حقا، ومؤثرة فعلا. كان سر قوتها ومصدر جاذبيتها للعالم يكمن في رؤيتها أن محبة الناس وخدمتهم بقوة يسوع، أفضل جدا من المكانة والسيطرة بقوة قيصر، ولذا انتشرت الكنيسة وقلبت عالم قيصر رأسًا على عقب (أعمال ١٧:٦)، ليس لأنها كانت تحمل جاذبية قيصر، ولكن لأنها كانت مملوءة بروح المسيح المصلوب. إلا أنه للأسف، فهم عدو الكنيسة سر قوتها أنها تبنت مفهوم قوة مخلصها، فخدعها وأغراها لتهدم المذود وتدخل القصر، لتطرح الصليب وتجلس على العرش، أن تترك مسيحها وتتبع قيصر. وكأنها تكرر مأساة الحماقة الكبرى عندما هتف الشعب، "ليس لنا ملك إلا قيصر". لقد حدث التحول من المسيح إلى قيصر تدريجيا وكانت بدايته اعتماد المسيحية ديانةً رسمية للإمبراطورية الرومانية، عندما أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس الأول مرسوم تسالونيكا في عام ٣٨٠ ميلاديًا. وسكن بعدها قادة الكنيسة في القصور، وجلسوا على عروش، بل ولبسوا التيجان، بل في ٢٥ ديسمبر سنة ٨٠٠ م لبسوا تاج قيصر نفسه، بل وتلقبوا بلقب قيصر نفسه، pontifex maximus. في ذلك الوقت، وفي تناقض منطقي فج، بل وتناقض أخلاقي هزلي، غيرت الكنيسة اسم الإمبراطورية الرومانية ليصير "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" فلم تصبح الإمبراطورية مقدسة، بل أمست الكنيسة غير مقدسة. لقد خلعت الكنيسة بلا خزي رداء تسبيحها، ونبع قوتها، عندما تخلت عن قوة الصليب وقبلت قوة العرش. كم هو أمر مؤسف

أن ما بدا انتصارًا كان في الحقيقة هزيمة ساحقة. أصبحت الكنيسة منذ ذلك اليوم قوية، لكن هذه المرة على طريقة قيصر، وليس على طريقة المسيح. صارت الكنيسة بعدها مؤثرة، لكن جاء تأثيرها على الإنسان هو تأثير فوقي وليس بيني، تأثير المكانة والسطوة، وليس تأثير المحبة والخدمة، تأثير التخويف وليس تأثير الرحمة، تأثير التعالي العازل وليس تأثير التواضع المُحتوي، تأثير القصر والعرش لا تأثير المذود والصليب. عبر عن هذا الكاتب الروسي الكبير دوستويفسكي في رائعته الإخوة كارامازوف على لسان قائد الكنيسة الأعلى، المفتش الأكبر عندما ظهر له المسيح في القرن السادس عشر في أشبيلية عقب ليلة احتفلت فيها الكنيسة بإحراق مائة هرطوقي أحياء، فإذ بقائد الكنيسة يقول له ضمن ما قال:

"ذلك هو سرنا، إننا منذ زمن طويل قد كففنا أن نكون معك، وتحيزنا له هو. فمنذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق ورفضته أنت مستاءً، أعني الهبة الأخيرة التي عرضها عليك، السيادة على ممالك الأرض، لقد قبلنا نحن أن نأخذ من يديه روما وسيف قيصر"[١٠]

ولقد لاحظت أمرا مثيرا للانتباه، أن دوستويفسكي قد أهدى هذه الرواية الرائعة لزوجته آن وكان إهداؤه لها بهده العبارة من يوحنا ١٢: ٢٤، "الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير"

أختم هذه النقطة باقتباس من يورج ريجير Jeorg Rieger والذي تخصص في الكتابة عن لاهوت القوة، في كتاب له عنوانه Jesus Vs Caesar قيصر أم المسيح. وبعد أن أوضح نصرة يسوع كالقوي الحقيقي يوبخنا جميعا إذ يقول: إن «التوتر الأساسي في قلب المسيحية... ليس بين الدين والإلحاد، أو بين المقدس والعلماني، كما يُفترض عادة.... إنه التوتر بين يسوع وقيصر، فبينما يمثل يسوع الطريق المحيي الذي يخلص الناس، يمثل قيصر الدين الخبيث الذي يخدم إلهًا زائفًا يحاول السيطرة على الناس بقوة الإمبراطورية[11].

---

[١٠] المفتش الكبير، الإخوة كارامازوف الجزء الثاني، ٢٠٤،٢٠٥

[11] Jesus vs. Caesar: For People Tired of Serving the Wrong God, Abingdon press, 2018

هذه رسالتي للخريجين اليوم أقول لكم مناشدا هيا أذهبوا إلى الناس، وهيا ارتقوا منابر الكنائس، لا لكي تسودوا بل لكي تخدموا، هيا اتبعوا خطى سيدنا في مفهومنا للقوة، إنها قوة الخدمة وليس السطوة، ليس من قبيل التنازل والتضحية، بل هذا ما يحتمه الذكاء والمنطق والتعلم من التاريخ، هذا إذا أردنا الخلود ودوام أثرنا.

أنتقل إلى المرحلة التالية من التاريخ البشري، بعد مرور العصور القديمة والوسطى، جاء عصر الحداثة، عصر النهضة والإصلاح والتنوير.

ثانيا: عصر الحداثة.

القوة هي الثورة

إذا كانت القوة في عصر ما قبل الحداثة هي السطوة، فالقوة في عصر الحداثة كانت هي الثورة. نعم، كان هذا العصر هو عصر الثورة. جاءت النهضة ثورة في الثقافة، وجاء الإصلاح ثورة في الدين واللاهوت، وجاء التنوير ثورة فلسفية وعلمية على الخرافة والجهل. وتمخضت هذه الثورات الكبرى عن ثورات سياسية على أنظمة الحكم وعلى الملوك والحكام، ربما كان أبرزها الثورة الفرنسية. والتي كان شعارها: "الإخاء والمساواة والحرية" جاءت هذه المبادئ لتكون صرخة المظلومين ضد الظالمين من رجال الحكم ورجال المال، بل ومن رجال الدين.

وإلى اليوم يعتبر كثير من المؤرخين العالميين الثورة الفرنسية واحدة من أهم الأحداث في تاريخ البشرية، لقد غيّرت الثورة الفرنسية نهائياً طريقة تنظيم الحكومات وعملها. قدمت أفكاراً جديدة حول الديمقراطية والمواطنة وحقوق الإنسان، والتي لم تزل تؤثر على الأنظمة السياسية في جميع أنحاء العالم حتى الآن. لكن ومن المثير للسخرية أن الثورة الفرنسية نفسها قد فشلت في النهاية. فعلى الرغم من أنها في البداية قلبت الملكية المطلقة في فرنسا، مما أدى إلى إقامة جمهورية فرنسية. لكن في أقل من عشر سنوات قدمت ديكتاتورا أسال الدماء أنهارا في أوروبا والشرق الأوسط. قتلت الثورة الملك، وجاءت بنابليون بونابرت، الذي أقام نفسه إمبراطورًا لفرنسا! والذي أدى حكمه إلى الحروب والقمع وعودة الحكم الاستبدادي في فرنسا . وقد نالنا في مصر من ويلاته جانب، إذ تذكر بعض الدراسات مثل موسوعة رشيد للدكتور محمود أحمد درويش أن عدد ضحايا الحملة الفرنسية على مصر من المصريين حوالي خمسين ألف قتيل وخمسة عشر ألف جريح، ومن الفرنسيين أنفسهم ٢٦٦٣٤ قتيل وحوالي ٣٠٠٠ جريح. بل وتكفي مذبحة يافا لتكون وصمة عار على جبين هذا الدكتاتور.

هذه قصة ساخرة تكررت كثيرا في التاريخ السياسي، حيث يثور المظلوم الضحية ضد الظالم، ويعلن عن عصر "الحرية والمساواة والإخاء" ولكن سرعان ما تنقلب الأمور رأسًا على عقب، ويصير المظلوم أسوأ من الظالم الذي ثار ضده في الأصل. في حالة الفرنسيين، كان نابليون في كثير من الأحيان أسوأ من ماري أنطوانيت. وبعيداً عن الثورة الفرنسية، ونتيجةً لتأثيرها جزئياً، جاءت أفكار ماركس و إنجلز والثورة البلشفية الناتجة عنها. وبطريقة مشابهة، تمت إزالة النظام الملكي الروسي، وتم قتل القيصر بطريقة وحشية، وماذا كانت النتيجة؟ لقد صارت روسيا السوفيتية أسوأ بكثير من المملكة الروسية. وكما كان نابليون أسوأ من ماري أنطوانيت، كانت قسوة القيصر الروسي لا تقاس بوحشية لينين وستالين، فقمعهم الدموي شهادة صارخة على دموية القرن العشرين. الثوار الأنقياء الذين ادعوا أنهم سيحققون عصر الحرية والمساواة والإخاء، أصبحوا أسوأ الظالمين الساحقين للبشر!

هذا ينقلنا إلى المفهوم الثاني للقوة الحقيقية وسأستنتجه معكم من تعليم يسوع.

في حديثه لملاك كنيسة لاودكية، يختم يسوع حديثه بوصية أخيرة فيقول له: "كن غيورًا وتب".

الكلمة غيور هنا هي في اليونانية من المصدر (زيلو) (ζηλόω)، والذي يعني الفوران كالماء المغلي. وهي نفس اللقب الذي أعطى لواحد من الرسل الإثني عشر هو سمعان الغيور. ويرجح المفسرون في تفسيرهم لهذا اللقب بأنه كان ينتمي لجماعة تتبنى الثورة مفهوما للخلاص تماما كما في عصر الحداثة. فكانوا يرون أن الثورة الدموية هي السبيل الوحيد للخلاص من بطش الإمبراطورية الرومانية. وبناء على هذا فأني أرى أن يسوع عندما يعلم ويقول كن غيورا فهو يقول كن ثائرًا! أي أنه يعلم بحتمية الثورة، لكن إذ يلحقها بالقول "وتب" فهو يحدث ثورة في مفهوم الثورة، فالثورة الحقة هي الثورة على النفس وليس على الغير.

نعم إن الخلاص لن يتحقق إلا بالثورة، لكن ليس بالثورة على شر الأخرين، لكن بالثورة على شر أنفسنا أولا، هنا تكمن القوة الحقيقية. لقد كان يسوع ثائرا عنيفا وهو يعلم قائلا: إن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك، وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك. في لوقا ١٣ جاء إلى يسوع قوم يخبرونه عن هؤلاء الثوار الجليليين الذين ثاروا على الإمبراطورية الرومانية فخلط بيلاطس دمهم بذبائحهم. وكأنهم يسألونه عن شرعية ثورتهم. فإذ به يفاجئهم بالقول: «أَتَظُنُّونَ أَنَّ هؤُلاَءِ الْجَلِيلِيِّينَ كَانُوا خُطَاةً أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ الْجَلِيلِيِّينَ لأَنَّهُمْ كَابَدُوا مِثْلَ هذَا؟ ٣كَلاَّ! أَقُولُ لَكُمْ: بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ". يتضح من هذه النصوص أن يسوع ليس ضد الثورة، لكنه ضد الثورة على شر الأخرين قبل أن

نثور على شر أنفسنا بتوبة حقيقية. إنه ليس ضد إخراج القذى من عين الأخر لكن ليس قبل إخراج الخشبة من عين نفسك. إن لوح الخشب في عينك، وليس القذى في عين أخيك، هو ما يستوجب الثورة والعنف مع النفس، والذي هو التوبة الحقيقية.

وفي الو اقع أن التوبة هي الثورة الأصعب، لأن التوبة في المسيحية هي (μετανοέω)، والميتانويا هي تغيير أنظمة الفكر. ولذا فالتوبة في المسيحية من وجهة نظري ليست هي مجرد الاعتراف بالخطأ، ولا حتى الامتناع عن فعل الخطأ، لكنها تغيير أنظمة الفكر الر ابضة وراء الفعل الخطأ والتي أفرزت الخطأ. هنا تبرز عبقرية تعليم المسيح عن المفهوم الصحيح للقوة. فالقوة الحقيقية تتجلى لا في تغيير أنظمة الحكم، بل في تغيير أنظمة الفكر، هذا لأن تغيير أنظمة الحكم أسهل، بل وتستطيع هوجة من العوام في بضعة أيام القيام به، وربما تاريخ مصر الحديث ولاسيما في ثوراته المتعددة يؤكد صحة هذا الاعتقاد. وهنا يبرز السؤال: كيف تغير أنظمة تفكير الأخرين الشريرة، و أنت لم تزل تفكر بنظام تفكير شرير؟ إن وصية المسيح العبقرية هنا هي، ثر على الفكر قبل أن تثور على نظام الحكم فما أنظمة الحكم إلا وليدة أنظمة الفكر، وقبل أن تثور على فكر الأخرين الشرير، ثر على فكرك الشرير.

إذا لم نتذكر هذا سنخطئ نفس خطأ هؤلاء الثوار الذين سبق ذكرهم. فعندما تواجهنا مصاعب مثيري المشاكل في كنائسنا، وهم كثر، يكون أول ما نفكر فيه هو استعمال قوتنا/ سلطتنا لإزاحتهم من الطريق، دون استماع وطاعة لوصية المسيح "كن غيورا وتب". إذا أردنا أن نكون أقوياء بحق علينا أن نبحث عن تغييرنا الداخلي قبل التحول الخارجي لإزالة الأشخاص أو الأشياء التي نحددها كشرور، لئلا نصير أسوأ من أولئك الذين نسعى للثورة ضدهم، فنهلك كما علم المسيح! لقد هلك جميع ثوار الحداثة، أين هو نابليون اليوم؟ أين الشيوعيون؟ لقد أدينوا جميعًا كظالمين دمويين، ولم يزل التاريخ يلعنهم إلى اليوم، لقد هلكوا. ولكن أولئك الذين اتبعوا طريق يسوع، أولئك الذين سمعوا كلامه وسعوا أولاً إلى توبتهم الخاصة، هم الذين كانوا لهم التأثير الباقي. أنا لا أدين الثورة فيسوع من وجهة نظري كان أعظم ثائر في التاريخ. لكنني أؤمن طبقا لتعليمه أن القوة الحقيقية تكمن في الثورة أولاً ضد خطية النفس، قبل الثورة ضد خطية الآخرين .

وعلى المستوى الكنسي دعونا نتذكر كإنجيليين أن الإصلاح كان في حد ذاته فعلا ثوريا ضد شرور النظام الديني. ولكن مرة أخرى، كما تكرر كثيرًا في التاريخ، كثيرا ما تتوقف الثورة عند حد الإدانة المتعجرفة لأولئك الذين أخطأوا، بدلاً من التوبة المتواضعة والإدانة المستمرة لخطيتنا. هذا، من وجهة نظري، هو أكبر خطر على الكنيسة المُصلِحة، فهي لكي

تستمر كنيسة مُصلِحة تحتاج أن تظل دائما كنيسة مُصلَحة. "هذا هو السبب في قول المصلحين الأو ائل أن الإصلاح يجب دائمًا أن يخضع لإصلاح ذاته". إن نسينا هذه الحقيقة سنمسي متعجرفين. إن الاعتقاد بأننا ورثة الإصلاح الذي اكتشف وصحح ما هو خاطئ في العالم، دون الاجتهاد في إصلاح إصلاحنا، ربما يكون هو السبب الذي أفقد الكنيسة المصلحة قوتها. ولكي تستعيد الكنيسة قوتها وتأثيرها، يجب أن تكون كنيسة التوبة المستمرة، بدلاً من كنيسة الإدانة المتعجرفة .

ليتنا كقادة للكنيسة اليوم نعود ونطيع تعليم سيدنا من جهة مفهوم القوة الحقيقية، إنها قوة التوبة وليست قوة الإدانة، القوة بالثورة على شرورنا الشخصية والعيشة في القداسة العملية. فلن نكون أقوياء إلا بقدرما نكون أنقياء، بقدرنقاوتنا تكون قوتنا.

هذا يصل بي إلى نقطتي الأخيرة، وإلى عصرنا الحالي،

ثالثا: عصر ما بعد الحداثة.

القوة هي رفض الحق

في عصر ما قبل الحداثة كانت القوة بالسطوة، وفي عصر الحداثة كانت القوة بالثورة، أما فيما بعد الحداثة فالقوة برفض الحق.

من منتصف القرن الثامن عشر وإلى منتصف القرن العشرين، عاش العالم الغربي قر ابة مائتي عام مزهوا فخورا بالحداثة. فيها اعتمدوا العقل السلطة العليا لمعرفة الحق، السلطة التي تنسخ أي سلطة أخرى بما فيها سلطة الله وكلمته. واعتمدوا العلم وحده طريقا للوصول للحق، بل ومفتاحا لكل الأسرار. فلا حاجة لهم مع العلم لشيء، ولا حتى لله! رأوا المأزق البشري يكمن في الجهل بالحقيقة، والعقل والعلم هما الطريق الوحيد لمعرفتها، وبالتالي هما طريقهم الوحيد للخلاص. حتى فاجأهم القرن العشرين بكل قسوته الدموية، وفضائح النازية، وبشاعة الدكتاتورية الشيوعية، فارتدوا على أعقابهم للتشكك في كل منتجات عصر الحداثة. هنا وبدءا من سبعينيات القرن العشرين بدء ثقافيا ما يسمى ثقافة ما بعد الحداثة. في تلك الثقافة رفض شديد لكل من يدعي أنه يعرف الحق، ناهيك عن المدعي بأنه يملك الحق، بل ووصل التمرد لرفض مفهوم الحق نفسه، ومن عام ٢٠١٦ دخل قاموس أوكسفورد مصطلح جديد سمي في تلك السنة كلمة العام **post truth age** أي عصر ما بعد الحق. فعصر ما بعد الحداثة هو عصر ما بعد الحق. لقد صاروا يرون أن ادعاء امتلاك الحق هو مجرد صورة جديدة وخبيثة لامتلاك السلطة على الأخرين، أي صورة جديدة أفرزها عصر الحداثة،

للسيطرة على الناس وقهرهم. فبدلا من السيطرة على الناس بقوة السلاح أو المال، كما كان يحدث في عصور ما قبل الحداثة، يتم السيطرة عليهم في عصر الحداثة، أي عصر العقل، بقوة منتج عقلي يسمونه الحق. عبر عن هذا الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو، إذ يقرر أن الحق ليس هو "مكافأة للأرواح الحرة"، ولا هو، كما تخيل إيمانويل كانط منذ قرنين، "امتيازًا لأولئك الذين نجحوا في تحرير أنفسهم". لكن الحق هو مجرد منتج السلطة، وأداة في يدها، لقهر الناس والسيطرة عليهم[١٢].

وعلى الرغم من رفضي لتطرف ما بعد الحداثة في تمردها العنيف على الحداثة، ورفضها المتعجرف لمفهوم الحق، إلا أني أشعر بأننا كمسيحيين مدينين لها، إذ أنها تجبرنا على التوقف ومراجعة أنفسنا من جهة مفهومنا للحق. يبدو أن عصر الحداثة، أي عصر العقل كما سماه ول ديورانت، قد أثر بشدة على الكنيسة ومفكريها وقادتها، ولا سيما الكنيسة المصلحة، حتى أنها صارت ترى الحق مجرد منتج عقلي يخاطب العقل. صياغات معرفية للإعلان الإلهي الذي سجله الكتاب المقدس. وكانت النتيجة الكارثية لهذا المفهوم، هو تعدد هذه الصياغات على عدد الطوائف المختلفة، بل وربما على عدد اللاهوتيين المختلفين، وكل صياغة من هذه الصياغات يرى أتباعها أنها هي الحق، والحق وحده، وغيرها ضلال مبين. هنا انتعشت طبيعتنا البشرية الساقطة، ورغبتها المقيتة في التحزب، وإيجاد الهوية في أيدولوجية، بدلا من أن تكون في بنوتنا لله وفي الاتحاد بالمسيح. عدنا مرة أخرى لعجرفة العارفين، الديانين للأخرين. صرنا مُكَفِرين لكل من لا يتبع معنا، لأنه لا يؤمن بعقائدنا التي أسميناها الحق. خسرنا روح المسيح الذي أعلن قائلا لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص به العالم. (يو٣: ١٧)

هنا يعود إلينا يسوع ترياقا شافيا من هذا الداء الخبيث، لا في عمله كما رأينا في النقطة الأولى، ولا في تعليمه كما رأينا في النقطة الثانية، لكن في شخصه. يفاجئنا يسوع بكشفه عن حقيقة جديدة أن الحق في جوهره ليس معلومة، بل هو شخص. إنه هو نفسه الحق، إذ يقول "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يو١٤: ٦). يفاجئنا بأن الحق شخص يملكنا وليس معلومة نملكها. الحق هو الذي وجدنا ليمسك بنا لنخدم الناس، وليس أداة معرفية نمسك نحن بها لنسود بها على الناس. الحق ليس منظومة عقائدية/ أيدولوجيا نتبناها لنشبع بها رغبة مريضة في الشعور بالفوقية، بل هو شخص يتبنانا

[12] Michel Foucault, 'Truth and Power', Power/Knowledge: Selected Interviews and Other writings, 1972-1977 ed. Colin Gordon (Essex: Harvester Press, 1980), p. 131.

ليصل بنا لأقدام الناس لنغسلها. بهذا الإعلان يعيدنا يسوع إلى الصواب لنفهم أن القوي الحقيقي ليس هو من يعرف الحق ولا حتى من يشهد للحق، بل هو من يكون معروفا من الحق، ومشهودا له من الحق. يسجل يوحنا لنا عن ديمتريوس في رسالته الثالثة فيقول: دِيمِتْرِيُوسُ مَشْهُودٌ لَهُ مِنَ الْجَمِيعِ وَمِنَ الْحَقِّ نَفْسِهِ، ٣يو: ١٢.

حري بالكنيسة في مصر اليوم، في عصر ما بعد الحداثة، أن تتعلم من سردية الكنيسة في العالم الغربي، يجب أن تدرك أنه إذا قدمت نفسها للعالم على أنها مالكة للحق، فسوف يثور الناس ليس عليها فقط، بل وعلى الحق الذي تتمسك به. وهكذا تفقد الكنيسة تأثيرها وبالتالي قوتها. حري بالكنيسة أن تتذكر أنها لا تملك الحق، بل عليها أن تهب نفسها للحق لكي يملكها ويجعل منها عمودا له، أي راية يرتفع فوقها. (١تيم٣: ١٥)

هذا التعليم لا يفصل بين معرفة الشخص للحق وصيرورته شخصا حقيقيا. أي لا تفصل بين المعرفة والأصالة. فالشخص يعرف الحق بمقدار ما جعله هذا الحق شخصا حقيقيا. فالحق المعلن بالروح القدس للكيان الروحي الداخلي، يحرر المُعلَن له من الزيف، قبل أن يجعله محاربا للزيف. إن قوتنا تكمن في أصالتنا، فنحن أقوياء بقدر خلونا من الزيف.

أحبائي، في عالم اليوم المليء بالصراعات السياسية، يجب على الكنيسة أن تتذكر هذه الحقائق الثلاث حول مفهوم القوة. القوة تكمن في مذود المسيح وصليبه، وليس في قصر قيصر وعرشه. القوة تكمن في الثورة على شر النفس قبل الثورة على شر الغير. وأخيرًا، القوة تكمن في الشخص الحقيقي الذي امتلكه الحق، وليس فيمن يظن أنه امتلك الحق. إن كنيسة تتبنى هذه المفاهيم المسيحية للقوة حتما ستكون قوية ومؤثرة بما يفوق أعلى آمالنا. ستكون كنيسة خادمة ومضحية، ومعليه لقيمة الإنسان. ثانيا، ستكون كنيسة طاهرة متغيرة ومتجددة. وثالثا، ستكون كنيسة متواضعة سيشهد يسوع نفسه، أي الحق نفسه، عن قوتها !

لتكن أخلاقيات القوة بالنسبة لنا هي هذا الشعار

"قوتنا في خدمتنا، قوتنا في نقاوتنا، قوتنا في أصالتنا" بهذا فقط تنجح كنائسنا ويتبارك شعبنا. وشكرا لكم.